مكية الجزء الثلاثون سورة الغاشية آياتها ٢٦

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ، مَكِّيَّةٌ، وفي «صحيح مسلم» عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ(١)، وجاءت رواية عند مسلم وغيره: كَتَبَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَسْأَلُهُ: أَيَّ شَيْءٍ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، سِوَى سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَقْرَأُ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾»(٢)، وهي سور عظيمة اختارها رسول الله ﷺ لقراءتها في هذا اليوم العظيم، وفي هذا المشهد الكبير، تتوارد ألسنة الأئمة على قراءتها في أغلب المساجد في العالم، وفيها من العبر والذكر ما تنخلع به قلوب المؤمنين، ويكون داعيًا لها إلى جنة النعيم، ومحذرًا لها من العذاب الأليم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، هذا حال الكافرين المعذبين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾، هذا حال المؤمنين المكرمين المنعمين في جنة النعيم عند رب العالمين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥].

ثم يقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾، دعوة إلى النظر إلى دلائل الوحدانية التي

(١) برقم (٨٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (٨٧٨)، وأحمد (١٨٣٨١)، والنسائي (١٧٤٩).

تؤدي بالإنسان إلى إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبودية.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وهذا تطمين للدعاة إلى الله، وترغيب لهم في الدعوة إلى الله، وليس إليهم هداية الناس. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

ونعود إلى معانيها، يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ ذهب جمع من المفسرين إلى أن المعنى: قد أتاك حديث الغاشية، أَيْ: خبر الغاشية، وهو من أسماء يوم القيامة على قول لأهل العلم، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ سماها القارعة، والحاقة، والواقعة. وسميت غاشية؛ لأنها تغشى الناس، وقيل: بأنها اسم للنار وبئس القرار، سميت بالغاشية؛ لأنها تغشى الكفار بحرها وما فيها من الخزي والبوار، نعوذ بالله من شرها، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وذكر الله الوجوه؛ لأنها أكرم ما في الإنسان، فالإنسان في هذه الدنيا يحرص على وجهه أن يشوبه شيءٌ من الأذى، وفي ذلك اليوم يعذب الكافر ابتداءً بوجه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أَيْ: ذليلة حقيرة من حيائهم من ربهم إذ لم يمتثلوا شرعه ودينه، ومن خزيهم بين العالمين، ومما يقدمون عليه من العذاب المهين، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تخشع، ولا ينفعها عملها.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قال بعض أهل العلم: أن الآية في شأن الكفار الذين يعبدون الأصنام والأوثان، فيعملون في الدنيا وينصبون ويتعبون، ومع ذلك يعذبون في الآخرة، وقال بعضهم بأنها في اليهود والنصارى، وروي عن عمر ولا يثبت: أنه مر على راهب في صومعة فناداه، فلما خرج بكى عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه ممن علمت، فقال: إنما ذكرت قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾، عاملة في الدنيا وتنصب ومع ذلك تعذب في الآخرة، وقيل بأن المعنى: أن أهل النار يعملون في النار، فيعالجون السلاسل التي يربطون بها، والحميم، وما هم فيه من العذاب الأليم، فيعملون وينصبون ويتعبون، وقيل بأنها في حق من يعصي الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، عاملة في الدنيا بالمعاصي والسيئات، والكفريات، والشركيات، وناصبة في الآخرة يلحقها النصب والعذاب الأليم في النار وبئس القرار.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أَيْ: نار شديدة الحر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ:٢١-٢٥].

فهذه النار يصلاها الكفار، نار حامية تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جميع جوانبهم، أكلهم النار ولبسهم النار وشرابهم النار، نعوذ بالله من حرها وسمومها.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أَيْ: انتهى حرها وغليانها فبلغت بالحر منتهاه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟﴾ لكن بماذا؟ ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شرابهم، وأنه الحميم، أخبر عن طعامهم وأنه الزقوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ [الدخان:٤٣-٤٨] والضريع شجرة في الحجاز يسميها أهل مكة الشبرق، كانت تأكلها الإبل اذا كانت طرية، أما إذا صارت ضريعًا لا يأكلها شيءٌ من الدواب ولا ينتفع بها أحد من الناس؛ لأنها كثيرة الشوك والأذى.

وقيل سمي ضريع؛ لأنهم إذا أكلوه تضرعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ في رفعه عنهم، والمعنى الأول عليه جماهير العلماء: أنهم يأكلون طعامًا سيء في منظره، سيء في أكله، سيء في حاله ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أَيْ: لا تسمن منه أجسامهم، ولا يذهب به جوعهم، بل يعذبون بالجوع والعطش مع ما هم فيه من العذاب الأليم، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

فلما بين الله جَلَّجَلَالُهُ حال الكافرين وصف حال المؤمنين، المكرمين، المنعمين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢] من النضارة والجمال والبهاء ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٣] بأعينها تتلذذ بالنظر إلى وجه الله، وما أعطوا شيء أحب إليهم من النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا المعنى مذكور أيضًا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩] أَيْ: حال المؤمنين، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر وجوه المؤمنين وما فيها من النعامة والجمال والبهاء،

وهذا دليل على جمال بقية أعضائهم، كما ذكر وجوه الكافرين وما فيها من الخزي والعذاب المهين، وهذا دليل على ما يلحق بقية أجسامهم.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا بالطاعات، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ أَيْ: بأعمالها التي عملتها في الدنيا وأوصلتها إلى مرضات الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللَّهِ،

وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»، قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ»(١).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ سقفها عرش الرحمن، «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»(٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»(٣).

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ وفي قراءة: ﴿لَّا يُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ﴾(٤) وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، فهي جنة عظيمة أعدها الله للمؤمنين في ذلك اليوم العظيم لا يؤذيهم شيء لا من الزوجات، ولا الأبناء، ولا الجيران، ولا من الضوضاء.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَيْ: عيون سارحات وأُفردت لإفادة العموم، منها ما هو من الخمر الصرف الذي لا يُسكر ويُتنعم به، ومنها ما هو من العسل، ومنها ما هو من اللبن، ومنها ما هو من الماء كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان:٦].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي بعيدة المنال، ومع ذلك يذكر العلماء أنها تدنوا من أصحابها إذا أرادوا الصعود، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان:١٣]. فيتنعمون مع زوجاتهم وأهاليهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (٨/٤٠٩).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أكواب يشربون فيها الخمر، واللبن، والعسل، والماء قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان:١٨]، ومعنى السلسبيل أن تروى بدون أن يسبب لك شيئًا من الشجي أو غير ذلك، وهذه الأكواب بعضها من الذهب، وبعضها من الفضة، قال تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان:١٥-١٦].

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ وسائد كثيرة جميلة عظيمة، كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن:٥٤]، وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن:٧٦].

﴿وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أَيْ: فرش وبسط مبثوثة في الجنة، أينما شاء جلس، وأينما شاء اتكأ، لا يلحقه نصب ولا تعب، وإذا أراد الطعام والشراب جاءه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:١٤]، فهم على فرشهم وتدنوا منهم فيأكلون ويشربون ويتنعمون، ثم تعود إلى أماكنها.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

ثم يقول ربنا داعيًا إلى التأمل في آياته الكونية التي تؤدي إلى الإيمان ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ أي: هلا ينظرون بأعينهم ويتفكرون بقلوبهم ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وذكر الله الإبل؛ لأن العرب كانت تراها أعظم المخلوقات الحيوانية، ومن عظيم شأنها أن لا حيوان يُحَمَّل ثم يقوم وهو جالس إلا الإبل، ومن عظيم شأنها علو رقبتها، ومن عظيم شأنها أنها تنقاد للطفل الصغير، ومن عظيم شأنها أنها تمكث الليالي والأيام لا تشرب الماء، ومن عظيم شأنها حملها للأثقال الكثيرة إلى غير ذلك، فالذي خلقها وسخرها وأعدها وأمدها هو الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون داعيًا إلى عبادته.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أَيْ: وينظرون إلى هذه السماء العظيمة المترامية التي رفعت بغير عمد رفعها الله عَزَّوَجَلَّ، وهي دالة على قدرته ووحدانيته، فيكون داعيًا لهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بما يجب له.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ الجبال العظيمة التي لا تتحرك ولا تتزلزل، ثبتت بها الأراضي، وتجد الجبل العالي فإذا ما طلعته وجدت الماء يسيل من أعلاه، فإذا بأحسن الثمار وأحسن الأشياء موجودة فيه، من الذي أنبته؟ من الذي رفعه؟ من الذي حفظه؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ هذه الأرض الواسعة بسطها الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل فيها المهاد والأنهار، وجعل فيها البحار، وفيها غير ذلك، أفلا يكون في ذلك دعوة إلى إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة؟! بلى وربي، كما قال بعضهم: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَآثَرُ الْأَقْدَامِ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢]، ومما يدل على ذلك ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»(١).

ثم قال لمحمد ﷺ، وهو أمر لكل داعي إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَذَكِّرْ﴾ بخطبتك، ودعوتك، الناس بما لهم عند الله، وخوفهم ورغبهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك الهداية والتوفيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، وهذه تسلية لمحمد ﷺ، لأنه كان يذكر الكفار، وربما شق عليه حين يجد إعراضهم، بل ورموه بالحجارة، وطردوه، وهموا بقتله، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾** [الغاشية:٢١-٢٢]»(٢).

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي له الأمر أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأما الداعي والمدعو فحاله كما قال

---

(١) أخرجه مسلم (١٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢١).

جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ﴾ [الأعلى:٩-١٢].

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ[1]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[2].

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ يقول لكن من تولى عن الذكر، وكفر بالله، وحارب الله ورسوله ﷺ: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ﴾ يوم القيامة ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ في نار وقودها النار والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يُرحم من دخلها، وتكبر أجسامهم ليزدادوا عذابًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ**»[3]، فيُكسون ويلبسون من النار، ويفرشون من النار، ويضربون بالنار، ويشربون النار، ويأكلون النار نعوذ بالله منها.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أَيْ: مرجعهم، فالجميع، من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار إيابهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١ ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ أَيْ: يحاسبهم الله عَزَّوَجَلَّ على أعمالهم ولو كانت مثاقيل الذر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويجازون عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥١).